الخطأ

قصة بقلم برهان الخطيب

يسقط الثلج ويغمر ساحة المنزل الخلفية المأى بهياكل الاشجار الجرداء ويهبط منه هدوء وصمت يخيمان على الساحة ويتسربان الى الغرفة ، حتى ان ((تميلا)) عندما تأتي الى الفراش تختفي تحت الغطاء كقطة مقرورة. لا تفعل شيئا ، فقط تضع رأسها تحت ذراعه وتسكن هناك وهي تصعد نحوه نظرة متضرعة .. واذ يطول الصمت وهو لا يفعل الا التحديق في سقف الغرفة تمد يدها وتداعبه ، تقول :

ـ كو .. كو ..

وفي المرة الاخيرة لم يحتمل عندما قالت ((كو .. كو ..)) فاجاب بحدة :

ـ يكفي سخافات !

فتعكرت عيناها بسحابتين واضافت بلهجة مستسلمة وهي تشير الى بطنها بذقنها :

ـ انه هناك وأنت تحدثني بخشونة هكذا !

مرت فترة صمت قصيرة . ثم قال ببطء وبصوت متورم :

ـ انها غلطتي .. ينبغي ...

الا انه لم يكمل ، وصمت ..

.. كان الحشد صاخبا . توقفت سيارات كثيرة في الشارع المنحدر حول الجبل ، وصفر شرطي المرور . هرع أناس آخرون من أبواب البارات ذات الانارة السريعة وفرغت بعض الكراسي في مقهى أوتيل «اكسلسيور» وأطل اخرون برؤوسهم من نوافذ مقهى «الشامات» . خلف سور الناس على الرصيف ، سمعت صرخة أخرى قوية ، لم تكن صرخة استغاثة هذه المرة انما صرخة ألم . ثم التفتت الرؤوس بعد ذلك نحوه الى الوراء ، وساله رجل :

ـ هل تعرفها ؟

اقترب من الحشد قلقا ، القى نظرة .. الدم ينزف من فم الفتاة المنطرحة على الارض ، وفوقها شاب أسمر ، أنيق جدا ، يلهث وعلى وجهه خدوش أحدثتها اظافر حادة قوية وفي عينيه نظرة حقد وتحد . أجاب مستغربا كمن يتحدث مع نفسه :

ـ لا أدري ..

وساله نفس الرجل مستغربا أيضا :

ـ ولكنها كانت تستنجد بك وتناديك باسمك .. ألست يوسف ؟

وكان ما يزال يتطلع باندهاش وتأثر نحو الفتاة المنطرحة بين الارجل في بقعة شبه دائرية تحجب العتمة فيها الرؤية الواضحة ، فكرر كالمتحدث مع نفسه :

ـ اجل اسمي يوسف .. ولكني لا أعرفها .. لا أدري ..

وعندما ارتفعت نظرته نحو الشاب الاسمر المخدش الوجه ، شق هذا بيديه الحشد منفعلا واتجه نحو سيارة كورفير حمراء لامعة ، تقف وسط الشارع ، مفتوحة الابواب ، جلس خلف المقود واندفع فيها فانغلقت الابواب تلقائيا . كان البوليس قد حضر وأخذ بعضهم يفرق المحتشدين ، وأشار احدهم بعصاه نحو مكان خال الى جانب الرصيف توقفت عنده سيارة الكورفير الحمراء . ومكث الشاب في مقعده خلف المقود يحدق نحو نهاية الشارع الملتفة حول الجبل بعصبية . قال رجل من بقية الحشد الملتف حول الفتاة المغمى عليها :

ـ انها غلطة كبيرة أن يضرب شاب فتاة في وسط الشارع هكذا .

وقال آخر وهو ينظر نحو يوسف مستخفا :

ـ انها غلطة الاخ .. كانت تستنجد به ولكن كان كأنه لا يسمع .

وأعقبت امرأة بغضب :

ـ انها غلطتكم أنتم .. رجال ! وكل ما فعلتموه هو التفرج على هذه المسكينة !

فأضاف آخر بلهجة متثاقلة كمن ينهي الحديث :

ـ ليست غلطة .. ساقطة نالت ما تستحق .

وبعد أن أنهى رجل بوليس استجواب أحد المتجمعين ، وضع يده على كتف يوسف وسأل بصوت نسائي ناعم :

ـ أنت تعرف انطوانيت ؟

تدفق الاسم في ذاكرته كالشلال ، وأمال رأسه الى الامام مركزا نظرته في وجه الفتاة المدمى التي حملها اثنان اخران من رجال البوليس وقذفاها بخشونة في خلفية سيارتهم العسكرية . لم يكن على وجهها ذلك التعبير الطفولي عندما كانت تجلب له سندويج المارتيديلا وبنقدها البقشيش العالي في مقهى سام جوار الجامعة الاميركية ، وجهها المدمى الان وجه امرأة كبيرة لا يمت الى الماضي بصلة .. وسمع بالقرب من اذنه صوت رجولي يقول بلهجة آسفة :

ـ انها غلطة لا تغتفر !

فأعقب صوت ثان ساخرا :

ـ يغتفر . ألا ترى ؟

وانطلقت سيارة الكورفير الحمراء ضاجة بسرعة بعد حساب قصير مع رئيس الدورية . ثم قال رجل البوليس ذو الصوت النسائي الناعم وهو يهم للالتحاق بالسيارة العسكرية :

ـ غلطتها هي .. دون السن القانونية وتشتغل بالبغاء بلا اجازة رغم التحذيرات .

وانطلقت السيارة ممتزجة بسير الشارع العام المزدحم . ومكث هو على الرصيف يوجه نحو عيون المتبقين من الحشد نظرة اتهام ، ويقرأ في عيونهم بالمثل اتهامات أخرى له !..

.. وجاء صوتها كالرذاذ قائلة بلهجة مشوبة بالرجاء والزعل :

ـ ثانية ؟..

فجر نفسا طويلا وأجاب متنحنحا :

ـ ماذا قررت أخيرا بشأنه ؟

خفضت جفنيها وأعقبت بلهجتها المستسلمة :

ـ القضية واضحة .. لا يوافق المستشفى على اسقاطه لانه لم يمض شهران على الاسقاط الاول ولا أستطيع ابقاءه لانه يتحتم عليّ اكمال الاطروحة .

فتصاعد غضب في صدره ، الا أنه كز على شفته السفلى . وسأل بذات الصوت المتورم :

ـ واذن ؟

فقالت هامسة وهي تخفي وجهها تحت ابطه :

ـ لا أدري .

فأضاف بنكد :

ـ انها غلطتي .

هتفت ملتصقة به بقوة :

ـ انها ليست غلطة أحد .. ربما حدث شيء ما غير اعتيادي ولكنه ليس خطأ .

ولكنه لا يدري لماذا صدها عنه بعنف ، وتنـــاول بنطلونه الملقى على كرسي قرب السرير ..

.. وقال له وهو يسلمه من جيبه ورقة مطواة بعناية :

ـ هذا هو الجواب على رسالتك التي ارسلتها راجيا ان تقرأهـــا الان وسنناقش المسائل سوية بروح التفاهم .

ولكن خلف نظارته كانت تطل عليه نظرة ساخرة متحفظة . واراد ان يقرأ الرسالة ولكن الضوء كان غير مسموح والستائر مسدلة تماما فيمـا يذهب احدهم بين حين واخر ليلقي نظرة خارج البيت . وشمعة وحيدة كانت تنتصب على طاولة صغيرة في زاوية الغرفة فاقترب منها ومسـح بعينيه سطور الورقة ، وكان الاخرون يستمعون لتقرير سياسي يقـرأه احدهم حول الوضع الدولي . وقال وهو يعيد النظر نحو رجل النظارة الطبيـة :

ـ انحتفظ بالرسالة ام نحرقها مع الادبيات الاخرى ؟

فعدل الرجل وضع نظارته الطبية على اذنه اليسرى وكان وجهه في ضوء الشمعة يبدو كأحد وجوه ممثلي افلام الرعب . اجاب متنحنحـا :

ـ ليست هناك ملاحظات بالمرة اذن !.

فأجاب وهو يتحاشى الالتقاء بنظرتـه الزجاجية :

ـ احتفظ بهذه الملاحظات لنفسي .

فابتسم رجل النظارة قائلا ، فيما كف الاخرون عن قراءة التقريـر السياسي والاستمـاع اليـه :

ـ ولكن أليس لنا الحق في الاستماع اليها .. ام انـــك تعتبـر نفسك خارجا منذ الان !

فتردد قليلا ثم اجاب بلهجة متثاقلة :

ـ الحقيقة .. لا يمكنني التصريح بها الان في هذا المجلس .

فحافظ رجل النظارة الطبية على ابتسامته وهو يعدل وضع الاطار ثانية على اذنه اليسرى ، وسأل :

ـ لماذا اذن انضممت الى الحزب ؟

فلم يسمع الا صوت نقيق الضفادع وهي تصخب خلف السياج في برك الامطار الربيعية ، ومرت فترة صمت قصيرة . اجاب بعدها بلهجة واثقة وهو ينظر في زجاجتي النظارة الطبية :

ـ لان في الخارج كان ثمـة اخطاء كثيرة ينبغي تصحيحها .

ـ ومرة اخرى ، مرت فترة صمت قصيرة تصاحب خلالها نقيـــق الضفادع خلف السياج . وجاء سؤال آخر من رجل النظارة الطبية :

ـ لماذا اذن تريد الان ما تريده ؟!

تصاعد النقيق اكثر صخبا فيما جاء الجواب باردا :

ـ لان اخطاء الداخل اصبحت مرضا كأخطاء الخارج .

وتنحنح رجل النظارة الطبية ، ومن جديد عدل وضع الاطار علـى اذنه اليسرى قائلا بجدية وهو يخفض رأسه ناظرا نحو الارض :

ـ غير ان الخطأ لا يصلح بخطأ آخر ..

وج... منه القميص بهدوء ، ثم أمسكت به مــن ذراعه ، وكررت وفي عينيها تلوح تلك النظرة المتضرعة :

انها ليست غلطة أحد .. ث... أشياء غير منطقيـة ولكنها لا تعني بالتأكيد خطأ ما .

فنظر اليها لحظات بامتهان ، ثم سألها بلهجة تقطر غيظا واحتقارا :

ـ وأنت ! ماذا تفهمين عن الخطأ !

فلاح في خضرة عينيها الداكنة لؤم وبقايا ربيـــع زائل ، وبدا أنها سوف تهر كقطعة محاصرة الا انهـــا حافظت على هدوئها وأجابت :

ـ ربما كان ما حدث خطأ كبيرا بالنسبة لك ولكنـه ليس هكذا عندي .. لست نادمة . وان ما وهبته لي هو شيء ما ربما لا تستطيع فهمه ..

وصمتت لبرهة ، فيما تطلع هو عبر النافذة نحـــو السماء الرصاصية ، المغلقة كأبواب حديدية ، فاين يمكــن ان تكون الان زرقاء صافية ..

.. زرقة بحر قزوين في المساء .. عندما يتـرك الناس الشوارع الضيقة المتقاطعة الكثيرة الخضراء بمتسلق العنب ، ويذهبـون للتمشي على الشاطىء المنحني . فيخرج مير محمدوف صابر مير مختار اوكلـو بعض الكراسي ويضعها امام البحر حين يهبط الليل ويقل عدد المتخطين رواحا ومجيئا . ويقول وهو ينفث الدخان من فمه بهدوء سارحا بنظرته في الفراغ اللامتناهي امامه :

ـ اشرب سيد يوسف .. لا تفكر .. الفكر يجلب الهموم ..

وتثير عربيته المنطوقة بنفم اذربيجاني مشاعر القلب فتمتد اليـد نحو كأس الكونياك وتلثمه الشفاه . ويأتي نسيم البحر باردا الا انــه لا يطفيء حرارة التساؤلات ، وتلوح ابتسامة مداعبـة ويتكـرر السؤال مرة اخرى :

ـ وانت يا سيد مير محمدوف الا تشرب ؟.. الى متى تظل هكـذا وانا اشرب لوحدي منذ دهور ؟

فيضيّق مير محمدوف صابر مير مختار اوكلو فتحتي عينيـه وهـو يطفيء عقب سيكارته في المنفضة المعدنية، ونسيم البحر يداعب الشعرات الشائبة القليلة في رأسه مجيبا :

ـ انت تعرف .. لا اشربها .

ويشير بيده نحو السماء المظلمة في الاعالي ويضيف :

ـ حرمها اللـه ..

ويهب الهواء من البحر الساكـــن ينعش الارواح ، فيداعـــب مير محمدوف بسؤال اخر :

ـ ولكنك شيوعي فكيف تؤمن بالله ؟

فتتسع الابتسامة على وجه مير محمدوف صابر مير مختار اوكلـو ويجيب وهو يقوم باشعال سيكارة اخرى :

ـ وهكذا نحصل على جنة السماء والارض .

فيقول بعد رشفة اخرى من كأس الكونياك :

ـ ولكن لا يمكن ان تكون مؤمنا وشيوعيا في آن واحد .. هذا خطأ!

فيمتص مير محمدوف نفسا عميقا من سيكارته ويقول وهـو يسرح بنظرته من جديد في الفراغ اللامتناهي امامه :

ـ ربما .. ولكنه خطأ غير مضر .

فيضحكان سويـة . ويقول بعـد ان يرتشف بقية الكأس :

ـ هل تعرف سيد مير محمدوف .. انت تشبه الى حد بعيد ابن خال لوالدتي اسمه الحاج كريم .

فيهز مير محمدوف صابر مير مختار اوكلو رأسه موافقا وهو يداوم النظر نحو البحر مبتسما ومضيقا فتحتي عينيه ..

.. وتظل تميلا تنظر اليه وهو يقف امام النافذة . ثم تضيف بلهجة مخذولة اذ تستقبل نظرته العائدة مــن الاعالي :

ـ .. نعم .. ان ما تتصوره خطأ أراه بعـين الحب ليس كما ترى .. انه الحياة عندي !

أصبحت الغرفة باردة ، باردة جدا ، والصمت تحول الى ماخوق شاحب حي يملأ الفــراغ ويتنصت بانتبـاه شديد . وظل الثلج يتساقط خلف النافذة بهدوء فيمـــا تطاوعه هياكل الاشجار البيضاء .. ساكنة تماما لكانمـا خلقت هكذا منذ أزمان سحيقة ..

موسكـو — برهان الخطيب